الفصل الثالث

مصر القديمة

تسلسل زمني

توخياً للدقة رأيت من واجبي أن أنقل للقارئ، بتصرف، ما جاء في كتاب «تاريخ إفريقيا العام- المجلد الثاني- اليونسكو» حول أوثق ما توصل إليه علماء الآثار في تأريخ التسلسل الزمني، واعتماداً على المصادر الأثرية والوثائق الكتابية، التي لم يبق منها إلا:

- حجر بالرمو الذي نقش على جانبيه أسماء كل الفراعنة منذ البداية حتى الأسرة الخامسة (حوالي ٢٤٥٠ ق.م) إلا أن هذه الوثيقة لم تصل إلينا سالمة إذ هشمتها في قسم منها، عوادي الزمن ومن ثم فقد وصلت ناقصة. وبردية تورين، التي تشتمل على قائمة الملوك بكامل ألقابهم وعدد السنوات والشهور والأيام التي حكموها مرتبة ترتيباً متسلسلاً، ويبدأ تاريخها منذ أقدم العصور حتى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م إلا أن عدم اتخاذ التدابير اللازمة لصيانتها أثناء شحنها أدى إلى تمزقها إلى أجزاء، ثم أنه بعد ترميمها بقيت فيها ثغرات كثيرة جداً.

يضاف إلى ذلك أن لكل فرعون تقويمه الخاص به فالحساب يبدأ بـ ١ حين يتولى الحاكم التالي العرش، ثم أن هناك خللاً آخر وهو أن عدة فراعنة حكموا في وقت واحد وفي فترات معينة، بمعنى وجود أسر حاكمة متزامنة، ثانياً أن الفرعون كان في أحيان كثيرة يشرك معه أحد أبنائه في الحكم، ولما كان كل حاكم يؤرخ آثاره طبقاً لحكمه، فقد حدث بعض التداخل.

وقد تعذر حل المشكلة لو لم توفِّر إحدى خواص التقويم الفرعوني القديم إطاراً وثيقاً للتسلسل الزمني، إذ أنهم كانوا يربطون التقويم بظاهرة فلكية دائمة، من السهل تنظيم جداولها الزمنية. ونحن نشير هنا إلى ظهور النجم سوتس، نجمنا المعروف باسم سيريوس أو الشعرة اليمانية، المتسق مع ظهور صعود الشمس على خطوط عرض هيلوبوليس - ممفيس.

وقد أخذ المصريون بالتقويم القمري لتحديد تواريخ أعيادهم الدينية إلى جانب استخدامهم تقويماً آخر هو فيضان النيل المنتظم.

أن أول فصول السنة، الذي أطلق عليه المصريون اسم «آخت» يشهد بداية الفيضان حين كانت مياه النهر ترتفع بالتدريج لتغطي النطاق الذي جففه الصيف القائظ ولمدة تقارب الأربعة شهور كانت الحقول خلالها تتشبع بالمياه. وفي الفصل

التالي كانت الأرض التي تظهر من جديد من ثنايا الفيضان تصبح معدة للبذر. وكان هذا هو فصل «برت» ومعناها الحرفي «البزوغ أو الخروج» أي خروج الأرض من المياه و «خروج» النبات. وحين ينتهي البذر ينتظر الفلاح النبت، ثم نضج الحب. وفي الفصل الثالث والأخير كان المصريون يجنون المحصول ثم يخزنوه. وبعد ذلك لم يكن لهم سوى انتظار الفيضان الجديد وإعداد الحقول لمجيئه. وهذا هو فصل «شمو».

وقد ربط المصريون فيضان النيل بارتفاع الشمس وظهور النجم سوتس في الأفق، هذا النجم الذي شبهه المصريون بايزيس التي كان يعتقد أن دموعها هي التي تسبب فيضان النيل. إن ربطهم لبداية الفيضان - أول يوم من أيام السنة الجديدة - بظاهرة فلكية قد زودنا بوسيلة لوضع نقاط ارتكاز ثابتة لتأريخهم الطويل.

كما لاحظ المصريون، مع الزمن، أن بداية الفيضان كانت تتكرر في المتوسط كل ٣٦٥ يوماً، ولهذا قسموا سنتهم المشتملة على ثلاثة فصول إلى سنة تتكون من اثني عشر شهراً كل منها ٣٠ يوماً وبإلحاق خمسة أيام إضافية (الخمسة المضافة إلى السنة)، وهي الأيام الخمسة التي يُطلق عليها الإغريق اسم النسيء. إن هذه السنة، على الرغم من صحتها، لم تكن كاملة تماماً، إذ أن الأرض في الواقع تُكمل دورتها حول الشمس لا في ٣٦٥ يوماً بل في ٣٦٥ يوماً وربع اليوم. أي أن بداية سنة المصريين الرسمية كانت تتراجع في كل أربع سنوات يوماً واحداً عن السنة الفلكية.

ولم حدث إلا بعد ١٤٦٠ سنة وهو ما يسمى «بالدورة السوتية» أن كانت تتصادف في يوم واحد ظواهر صعود الشمس وشروق سوتس وبداية الفيضان. وهذا اليوم هو أول أيام السنة الرسمية. (بمعنى أنه في كل ١٤٦٠ سنة يصبح الفرق سنة كاملة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً المترجم).

وقد تمخض هذا الفاصل التدريجي بين السنتين عن نتيجتين هامتين: فهو أولاً قد مكن الفلكيين المحدثين من تحديد الوقت الذي توصل فيه المصريون إلى تقويمهم، وكان يجب لهذا التاريخ بالضرورة أن يتزامن مع بداية السنة السوتية. فتزامن الظاهرتين، بداية ارتفاع الفيضان وظهور سوتس قرب الشمس، قد حدث ثلاث مرات خلال الخمسة آلاف سنة قبل الميلاد: في عام ١٣٢٥ إلى ١٣٢٢ ق.م. وفي ٢٧٨٥ إلى ٢٧٨٢ ق.م. وفي ٤٢٤٥ إلى ٤٢٤٢ ق.م. ولفترة طويلة جرى الاعتقاد بأن المصريين قد أخذوا بتقويمهم فيما بين عامي ٤٢٥٤ و٤٢٤٢ قبل الميلاد. أما الآن فمن الثابت أن ذلك لم يحدث إلا في بداية الدورة السوتية التالية: أي فيما بين ٢٧٨٥ و٢٧٨٢ ق.م.

أما النتيجة الثانية لأخذ المصريين بالتقويم الشمسي الثابت فهي أنه قد تمخض بالتدريج عن إيجاد فاصل بين «الفصول الطبيعية»، التي يحددها إيقاع النهر ذاته، وبين «الفصول الرسمية» التي تأخذ بها الحكومة وتقوم على سنة طولها ٣٦٥ يوماً. وقد ازداد هذا الفاصل، الذي لم يكن يُلحظ في البداية لكونه يوماً واحداً كل أربع سنوات، باطراد من أسبوع إلى شهر ثم إلى شهرين، إلى الوقت الذي كان فيه التقويم

الرسمي يقع خلال أوج الفصل الطبيعي برت. وقد استرعى هذا الانتقال انتباه الكتبة المصريين. ولدينا نصوص تلحظ، بصورة رسمية جداً، التفاوت بين طلوع سوتس الشمسي وبين بداية السنة الرسمية. وقد مكنتنا هذه الملحوظة من التثبت - مع التجاوز في حدود أربع سنوات - من التواريخ التالية:

- من المحتم أن عهد سوسرت الثالث يشمل السنوات ١٨٨٢-١٨٧٩ ق.م
- تقع السنة التاسعة من حكم أمنحُتب الأول بين السنوات ١٥٥٠-١٥٤٧ ق.م.
- يضم عهد تُحُتْمُسْ الثالث السنوات ١٤٧٤-١٤٧١ ق.م.

وبضم هذا التواريخ إلى التواريخ النسبية المستمدة من المصادر التي في متناول أيدينا: بردية تورين، حجر بالرمو، الآثار المؤرخة التي ترجع إلى فترات مختلفة، أمكننا التوصل إلى تسلسل زمني أساسي، هو أوثق جداول الشرق القديم الزمنية كافة، وان نبدأ هذا التاريخ بعام ٣٠٠٠ ق.م. ومن الممكن تأريخ تقسيمات مانيتون الرئيسية كالآتي:

- الأسرة الثالثة إلى السادسة (الدولة القديمة) حوالي ٢٧٥٠-٢٢٠٠ ق.م.
- الأسرة السابعة إلى العاشرة (العصر المتوسط الأول) ٢٢٠٠-٢١٥٠ ق.م.
- الأسرة الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة (العصر المتوسط الثاني) ١٧٨٠-١٥٨٠ ق.م.
- الأسرة الثامنة عشرة إلى العشرين (الإمبراطورية الحديثة) ١٥٨٠-١٠٨٠ ق.م.
- الأسرة الحادية والعشرون إلى الثالثة والعشرين (العصر المتوسط الثالث) ١٠٨٠-٧٣٠ ق.م.
- الأسرة الرابعة والعشرون إلى الثلاثين (العصر المتأخر) ٧٣٠-٣٣٠ ق.م.
- ويسجل فتح الاسكندر المقدوني في عام ٣٣٢ ق.م. نهاية تاريخ مصر الفرعونية وبداية العصر الهلنستي. (من كتاب تاريخ إفريقيا العام - اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام -اليونسكو -المترجم).

فيما بين ٥٠٠٠-٤٠٠٠ ق.م	العصر النيوليتي
نحـــــو ٤٠٠٠-٣٢٠٠ ق.م.	عصر النحاس
من ٣٢٠٠ حتى ٢٧٨٠ ق.م.	الفترة التاريخية الأولى (الأسرتان الأولى والثانية)
من ٢٧٨٠ حتى ٢٢٨٠ ق.م	المملكة القديمة (عصر الأهرامات من الأسرة الثانية حتى الأسرة السادسة).
نحـــــــــــو ٢٤٠٠ ق.م	بتاح حوتب
نحـــــو ٢٢٨٠-٢٠٥٢ ق.م	الفاصل الزمني الثاني ما بين (الأسرتين التاسعة والعاشرة).
من ٢٠٥٢ حتى ١٧٧٨ ق.م.	المملكة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢).

من ١٧٧٨ حتى ١٥٦٧ ق.م	الفاصل الزمني الثاني ما بين (الأسرتين ١٣-١٧)
من ١٥٦٧ حتى ١٠٨٥ ق.م.	المملكة الجديدة (مرحلة الأوج، الأسر من ١٨ حتى ٢٠، كتاب الموتى).
من ١٥٠٤ حتى ١٤٨٣ ق.م.	حتشبسوت تتسنم العرش بتنصيبها فرعوناً
من ١٣٧٢ حتى ١٣٥٤ ق.م.	امنوفيس الرابع «اخناتون».
من ١٠٨٥ حتى ٧١٥ ق.م.	الفاصل الزمني الثالث (الأسر من ٢١ حتى ٢٤).
من ٧١٥ حتى ٣٣٠ ق.م.	الانحطاط (الأسر من ٢٥ حتى ٣٠).
من ٣٣٠ حتى ٣٠ ق.م.	العصر الهلنستي (البطالمة).

المصريون

«أختك إلى جانبك»

أطلق سكان مصر الأوائل على بلادهم اسم الـ «كمت» البلاد السوداء، لتمييزها عن رمال الصحراء الصفراء التي تحيط بها من الشرق والغرب. كانت الكمت واحة تدين بخصوبتها وخضرتها إلى فيضانات سنوية مردها فيض النيل المنتظم. وعلى هذا فإن النهر يخصب البلاد السوداء بما يحمله إليها من فيض الطمي.

كان النيل إلهة عزيزة مرهوبة الجانب. وقد أطلق عليها مزارعو الكمت حابيس (حابي) ومثلوها على شكل كائن ثنائي الجنس شبيه بعشتار بلاد الرافدين. وقد تحلت حابيس هذه بخصائص ذكرية هائلة ولحية مهيبة. إلا أن لها، في الوقت نفسه، أثداء امرأة. وترمز صفات الإلهة الثنائية هذه إلى كفاءتها المزدوجة: ففي كل عام كان النهر يُخْصِبُ نفسه بنفسه ويَلِدُ ذاته، وفيما بين مساقطه المزبدة في الجنوب حيث ينبع حتى البحر حيث يصب، كان الأم المرضعة لبلاد الكمت.

وقد حلَّ محل الثنائية الجنسية، في وقت لاحق، الاعتقاد بقدرة الإله الذكرية المنجبة، إذ كانت نطفه مصدر خصب ونماء، فبدا إله النهر رمزاً للسلطة الذكرية، وثمة نصوص تشهد على ذلك، إذ يتصف حابيس بالقدرة الجنسية الفائقة «ما أن تُلهب الرغبة فؤاده حتى يسارع إلى اختطاف الزوجات من أحضان أزواجهن ليقودهن حيث يشاء».

وللتخفيف من سعير جنسية الإله هذه، كان المصريون يقدمون إليه القرابين من الفتيات يلقى بهن عاريات بين أمواجه العاتية ليلهو بهن ويتمتع، وليتخلى، في الآن نفسه، عن شريكاتهم ونسائهم. أما الآن وبعد أن اكتسب المصريون، بادئ ذي بدء، «فن السيطرة على النهر» فقد عقدوا العزم على الاحتفاظ لأنفسهم، دون غيرهم، بما عَرَفوا واختاروا من النساء.

وهكذا فقد استطاعوا أن يصرِّفوا غريزة حابيس الجنسية الجارفة النهمة ويشبعوها دون أن يتضرروا. وعندما نجح المصريون في توزيع مياه الفيضانات في قنوات أحسوا بمعجزة انتظارهم على هذا الإله المهيب المخيف فامتنعوا، من ثم، عن تقديم العذارى الأحياء له واستبدلوها بتماثيل أنثوية صغيرة لطيفة، وبدافع خشيتهم من عنف النهر وجبروته والرعب تدبه في القلوب أمواج عاتية يقذف بها ذات اليمين

وذات اليسار، صنع المصريون قرابينهم هذه من الذهب ومن الحجارة الكريمة المتعددة الألوان واستكملوها بتماثيل من اللدائن تمثل الإله، يقذفون بها بين أمواج النيل مع التماثيل النسائية الذهبية حتى تتصاعد مياه النهر فتغمر الأراضي وترويها.

تَسَمَّى سكان وادي النيل الأوائل، بفخر واعتزاز، «بالأناس»، وكانوا يحمون أعضاءهم التناسلية بوساطة غُمُودٍ صلبة تدرأ عنها الإصابات والجروح وتزيد من حجومها وبروزها، إذ لم يَعْتَدْ الرجال والنساء على ستر أعضائهم الجنسية بالمآزر إلا بعد لأي، فقط تطلب الأمر ردحاً من الزمن طويلاً. ولم يختلف سلوك أفراد القبائل الأخرى التي تسكن فيما وراء الصحراء وفي منطقة مجرى النيل الأعلى في شيء عن سلوك المصريين.

لكن المصريين كانوا يشعرون بأنهم مختلفون عن الآخرين ويعدون أنفسهم الأفضل بين الجميع، كما كانوا يفخرون بأنهم يعيشون ويموتون، بخاصة، على طريقتهم المتميزة. وبعبارة أخرى كان المصريون «أناساً» أما الأجانب فلا. وفي زمن اشتد فيه كرب البلاد، وانهار النظام القديم الثابت، وانقلبت الأحوال الاجتماعية عاليها سافلها، وارتفعت الشكوى من أن «الأغراب في الخارج دخلوا مصر.. وأصبح الأجانب أناساً في كل مكان» (من كتاب ما قبل الفلسفة ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا - المترجم).

تُعزى أصالة أخلاق وادي النيل إلى عزلة البلاد، وإلى انفرادها بمفاهيم دينية متنوعة هيمنت على بلاد الكمت، وإلى تميزها بمعطيات جغرافية طبيعية. لكن ظاهرة عدم تحلل جثث الموتى في تخوم البلاد الصحراوية كانت حاسمة، إذ كانت ريح الصحراء و «نسائم النيل» تصون، بغموض، تلك الأجساد الجامدة وتحافظ على مظهر الحياة فيها. وقد دفع ثبات الجثة المادية أقرباء المتوفى إلى التساؤل: هل الميت قد مات حقاً؟ أم أن الجسم وحده قد أصابه السبات لأن «القوة الحية» قد فارقته، تلك القوة التي ولدت معه وصحبته ووجّهته في خلال حياته؟ أطلق المصريون على هذا التصور الروحي للقوة الحية التي تبعث الحياة في كل كائن إنساني اسم الـ «كا» ترى متى تكونت تلك الفكرة؟ ومن أين قَدِمَ سكان الكمت الأوائل؟ مابرحت هذه الأسئلة بلا جواب. ويبدو، على الأرجح، أن هذه الأقوام لم تَفِد من «الغرب» مجتازة الصحراء الغربية، وإنما قدمت من الجنوب منحدرة مع النهر، ووضعت في الغرب حدوداً «لمملكة الموت» حيث تغرب الشمس: نهاية العالم الأرضي. إن التشابهات التي تقدمها أخلاقهم بالقياس مع العادات الحالية لسكان إفريقيا الوسطى تحمل على الاعتقاد بأنهم قد ساروا بمحاذاة النيل منطلقين من منابعه باتجاه مصبه إلى أن ألقوا عصا الترحال لدى اكتشافهم هذا الوادي الخصيب الغني بتربته، والمغمور بنور الشمس، والكثير الرواء. ولكن الحياة والخصب ليسا هبة مجانية، فقد تضافرت جهود المصريين مع ما تمنحه الطبيعة السخية المعطاء، كما دافعوا عن أنفسهم يدرؤون عنهم خطر الحيوانات المفترسة التي كانت تتهدد أمنهم وحياتهم، وتوزعوا في جماعات تقاسمت فيما بينها «البلاد السوداء»، فلم يكن ثمة ما يدفع بهم للنزاع والتنافس ليحصل كل منهم على

نصيبه من وفرة الغلال وبحبوحتها مادامت «الأرض تمنح» بسخاء. إن مشهد بعض الظواهر التي أفسحت المجال لتأويلات غامضة، والانطباعات التي تحمل الإنسان على التساؤل، وتجربة موت الأقرباء، كل ذلك تبلور في ذاكرة سكان الكمت على شكل هذا التصور للكا الذي حدد سلوكهم في الحياة الدنيا ورسم آمالهم في الحياة الآخرة.

وجد المصريون في الـ «كا» روح كل كائن إنساني، ومحتوى الحياة الروحية للرجال والنساء كافة. فقد كانت العلم والوجدان معاً، بواسطتها يشعر الإنسان بالألم والكآبة وبالفرح والمتعة. كانت الـ «كا» أكبر من حواس الكائن الإنساني مجتمعة، إنها فوق الطبيعي وفوق المحسوس: كانت الوسيط السري بين الإنسان والقوى الـ «فوق طبيعية» آلهة الكل المطلق، في حين أن الكائن الإنساني مجرد جزء من هذا الكل غاية في الدقة والضآلة، تستقبله الـ «كا»، في وقت لاحق، في كنفها إذا ما بقيت حية بعد الموت. بيد أن الإنسان لا يبلغ هذا الكل العظيم إلا إذا امتثل بأفعاله، على مدى حياته الأرضية، لتعاليم الآلهة ونواهيها ذلك لأن الآلهة هي التي تمنع أو تمنح حق البقاء.

إن لكل كائن إنساني، إضافة إلى الـ «كا» روحاً. وقد تصور المصريون هذه الروح طائراً له أجنحة سريعة ورأس بشري، كما تصوروها شبحاً ذي نزوات، وتركيباً عجيباً مثيراً للقلق يأتلف من الحيوان والنبات والإنسان. وقد عبد سكان وادي النيل، على اختلاف طبقاتهم، إلى جانب آلهة الأرض والماء والهواء والضوء والظلمات والعديد من الآلهة الثانوية التي تستثير ضروباً متعددة من أسرار نمو الحيوان والنبات، عدداً من الحيوانات التي يرهبونها: الحيوانات الأليفة، والتماسيح، وبنات آوى، والأفاعي، والحيوانات التي أبعدت عن المنطقة أو تلك التي اختفت وتوارت، فقد كانت هذه الحيوانات شياطين طيبة أو خبيثة وأرواحاً نافعة أو أعداء غير مرئيين لا تمنع أذاها إلا التعازيم.

كادت جميع تمثيلات الميثولوجيا المصرية أن تكون موسومة، إلى حد ما، بأصل حيواني. إن وجوه الآلهة كانت تختفي خلف أقنعة حيوانية، كما كانت أيد الآلهة وأرجلها مزودة بمخالب ورؤوسها مؤطرة بلبد السباع، في حين تنتهي مؤخرتها بذيول بنات آوى الناعمة الملساء. كان الأجداد الأقدمون يرهبون الوحوش التي لازمت سكناهم، فقد ناضلوا طويلاً للتغلب على الحيوانات الكاسرة والقضاء عليها. كما أن ذكرى هذا العراك بقيت مستحكمة راسخة في الأذهان على الرغم من تصاريف الدهر وتعاقب الأزمان، وارتبطت تمام الارتباط بالمفاهيم الدينية. وكان التمساح من أكثر الشياطين الحيوانية رهبة ومهابة، في حين كان الثور من أحبها إلى قلوب المؤمنين، إذ يرى الرجال في مقدرته الذكرية مثالاً يحتذى وأمنية مشتهاة لكنها، بكل حسرة، صعبة المنال لا تضاهى. وكان بمقدور التيس وحده، من بين كافة الحيوانات، أن يأمل، إلى حد ما، بمجاراة فحولة الثور المعبود. وثيران آبيس المقدسة هي تلك الثيران التي ترتسم على رقابها بقعة على شكل هلال قمري في ربعه الأول. وفي مراع أعدت خصيصاً، كانت الثيران المختارة تلهو بأبقار وتتمتع بها وتظهر

للمؤمنين قدراتها على الإنجاب. كان آبيس يرمز إلى القوة الذكرية بكمالها وتمامها ويوزع الكفاءات الجنسية على الإنسان والحيوان معاً.

عندما اتحدت قوى وادي النيل للإفادة من الفيضانات السنوية والتوسع بزراعتها بفضل الري، انضوت تحت سلطة الزعماء الذين تعاظم نفوذهم لنجاحاتهم التي تؤكد رشاد توجيهاتهم وصلاح أسسها ومنطلقاتها.

وحمل ازدياد السكان والرفاهية المتناميان، والزعماء الذين اكتشفوا «أسرار الطبيعة» على التجمع في «البيت الأعظم» يتبادلون فيه معارفهم للإفادة منها في سبيل النفع العام والمصلحة الشخصية أيضاً. وقد سمي «البيت الأعظم» بالفرعون، والفرعون لفظ كان يعني، في المقام الأول، المنزلية الرمزية، فأصبح، من ثم، لقباً للزعيم الأعلى. وغدا الفرعون، بفضل أعماله السامية، الحاكم المبجل والإله المعبود. كان الفرعون «الحائز على علوم السماء والأرض» و «السيد الأعظم بين الرجال العارفين»، التجسيد الأرضي للآلهة التي أنيطت بها حياة الرعايا الأرضية وحياتهم بعد الموت، تلك الحياة التي لا يشارك فيها إلا أولئك الذين يخضعون للقوانين الأخلاقية التي أُعلن عنها باسم الفرعون.

ولم تقتصر، بالطبع، مراقبة الخضوع للتعاليم الأخلاقية والإشراف عليها، على من صاغها وأصدرها: الفرعون وكهنته، ذلك لأن القانون لم يكن مجرد قانون أرضي بسيط بل كان في جوهره قانوناً إلهياً. وعلى الـ «كا» التي تبقى حية بعد موت الجسد، أن تقدم بياناً إلى المحكمة العليا «فوق الطبيعية». فالمصري كان يجهد طوال حياته في الامتناع عن القيام بأي عمل محظور يقف حائلاً دون تمتع الـ «كا» بالخلود. والحال هذه فإن الجميع يسعون جاهدين إلى التقليد بالقواعد. كما أن الفرعون «بخاصة»، وهو الإله الفاني في الأرض، لا يبلغ الخلود إلا بعد موته، إذ يخضع هو الآخر، على الرغم من سلطانه اللا محدود، إلى الآلهة التي تستخدم شخصه الملكي لتتجلى من خلاله في العالم الأرضي. أما فيما يتعلق باقترانه وزواجه فعليه أن يتقيد بالتقاليد الطقسية تلبية لمبدأ أسطورة الخلق ومراعاة لها: على كل فرعون أن يتزوج بإحدى أخواته ذلك لأن أول زوجين إلهيين كان يضم أخاً وأخته: إله الهواء شو وإلهة الرطوبة تفنوت. وكذلك الـ «نون» أصل الأشياء كلها كان يقضي بأن يتزوج الفرعون بأخته. إن أميرة ينجبها فرعون «البيت الأعظم» كانت، في الأصل قد أُعلنت ملكة منذ يوم مولدها، وأخوها، وقد غدا زوجاً لها، لا ينال لقبه ويبلغ مقامه إلا بعد تتويجه واقترانه بأميرة من «البيت الأعظم»[1].

أن الزواج بين الأخ وأخته كان شائعاً في أوساط الشعب أيضاً، حتى أن كلمتي الأخ والأخت كانتا تعنيان أيضاً الحبيب والحبيبة،

أنا أختك الأولى

١- وهذا أثر باق من النظام الأمومي الأقدم حيث كانت السلطة تنتقل من الأم إلى الابنة، ولم يكن أمام الأخ في بدايات التحول إلى النظام الأبوي سوى الزواج من أخته لاكتساب الحق بالسلطة من خلالها -المحرر.

وأنت لي كالروضة
التي زرعتُ فيها الأزهار
والأعشاب العطرة جميعها
وأجريت فيها غديراً
لكي تضع فيها يدك
إذا ما هبت ريح الشمال الباردة
وهي المكان الجميل الذي نتنزه فيه
حين تكون يدي في يديك
يفكر عقلانا ويبتهج قلبانا
لأننا نسير معاً
أن سماع صوتك ليسكرني
وحياتي كلها في سماعك،
وإن رؤيتك
لأحب إلي من الطعام والشراب

«قصة الحضارة - المترجم»

كما أن اقتران الأب بابنته لم يكن محرماً. إن مثل هذه الممارسات - الزيجات - التي أدانتها معظم شعوب الأرض بوصفها غشياناً للمحارم مازالت قائمة عند بعض المجتمعات الأفريقية ممن تتوافق أخلاقهم وتتماثل، في كثير من جوانبها، مع العادات المصرية القديمة، مما يحدونا إلى الاعتقاد بأن أوائل من استوطنوا وادي النيل قد قدموا إليه من إفريقيا الوسطى. ومع ذلك فقد أكد علماء الأجناس البشرية عكس ذلك: لقد تبنى سكان إفريقيا الأصليون العادات المصرية وخصوصاً ما يتعلق منها باحتفالات «المسارة» بمناسبة ختان البالغين التي ابتكرها المصريون للاحتفال بنضج البالغين الجنسي.

وكان الختان، أيضاً، يقع على الملوك الفراعنة. وقد أطلعنا على ذلك من خلال ما جاء في إحدى الكتابات المنقوشة، إذ تأخر تتويج أحد الفراعنة ملكاً على مصر «لأنه ما زال حديث السن ولما يختن بعد».

فالختان كان أكثر من إثبات رسمي لأهلية البالغ للزواج، فقد كان عملاً صالحاً يتوجب على الآلهة الخضوع له على الرغم من طبيعة العملية المؤلمة. تشهد على ذلك الرموز القضيبية للإله أوزيريس والإله آمون - رع، إضافة إلى المسلات

الصغيرة من الطين المشوي الملون التي أعدت خصيصاً لاحتواء قضبان الموتى وحفظها.

وليس بالشائن المعيب، بالنسبة للمصريين، أن يعرض أحدهم ذكره على الملأ، إن العضو المذكر في حالة انتصابه، كما يتراءى لهم، رمز طبيعي في تكوين كل حياة. والحال هذه، فليس ثمة داع لستر هذا العضو وإخفائه ما دامت الآلهة تعرض أعضاءها على الملأ وما دامت الذكورة أساس كل متعة حسية. إنه نون، العماء، هذا الإله الذي تخيله المصريون شبيهاً بكتلة سائلة لا حراك فيها، هو الذي أنجب «بولادة مباشرة» إله الشمس رع وفقاً لأسطورة الخلق التي كان كهنة معبد هليوبوليس يُلَقِّنُونها. أما رع فقد اقترن بذاته ليروي غليله وينجب أول زوجين إلهيين، وبذلك فقد كان الأب والأم في آن واحد. وعلى هذا فإن إله الهواء شو وإلهة الرطوبة تفنوت قد ولدا من قطرات الدم المنبجسة من قضيب رع ومن منيه الذي أخصب رحمه الخاص. وبالفعل فإن المصريين يسبغون على إله الشمس إمكانات ذكرية وأنثوية سمحت بخلق وولادة أول زوجين إلهيين.

ومن اقترن الإله شو بأخته تفنوت اقتراناً محرماً ولد إله الأرض جيب وإلهة السماء نوت. اللذان تجامعا بدورهما، إذا استلقت نوت بدعة وحنان فوق أخيها، لكن أباهما أوقف عناقهما وفصلهما رافعاً نوت لتنحني فوق أخيها كما القوس وتلامس الأرض بأطراف أصابع يديها وقدميها، بينما راح جيب المهجور على الأرض يتأملها من فوقه[1].

منع إله الشمس رع كلاً من الأرض والسماء من أن يتجامعا خلال ٣٦٠ يوماً التي كانت تشكل، في البدء، السنة المصرية. ولكن ثوث إله الكُتَّاب وحامي العلوم الذي هزت مشاعره رغبة العاشقين الظمأى، أوجد خمسة[2] أيام جديدة كانت تنقص، حتى ذلك الوقت، التقويم المصري.

وهكذا فقد أمكن للسماء والأرض، دون معصية أوامر إله الشمس، أن ينعما، في كل سنة، باللذة والمسرة خلال خمسة أيام ببياضها وسوادها، ومن اتحادهما أنجب العاشقان أوزيريس وأخته إيزيس وسيت وأخته نفتيس. واقترنت إيزيس بأخيها كما تزوج سيت بأخته نفتيس.

ومع تعاقب العصور اتخذ أوزيريس، في مخيلة المؤمنين، أشكالاً عدة. في البدء كان إلهاً للقمر وحجب «ضوءُ اسمه المقدس» بهاءَ إله النيل حابيس (حابي)، ثم أصبح إله النيل المعطاء وَرُمِزَ بموته ونُشُورِه إلى انخفاض مياهه وارتفاعها. وقد ارتبط هذا التماثل بأسطورة جعلت من أوزيريس إله «الحياة عند الموت» كما ارتبط

١- في هذه الأسطورة أثر من الأسطورة السومرية حيث نجد الهواء انليل يفصل بين الأرض والسماء الملتصقتين - المحرر.

١- وهي تلك الأيام التي أطلق عليها الإغريق اسم النسيء والتي تطابق بين التقويم، القمري والتقويم الشمسي - المحرر - المترجم.

بالعبادة التي كُرِّسَت له بوصفه «إله استمرار كل ما هو أبدي» و «إله تحول الأشياء الأبدي».

ففي المعابد التي تمثل «جلال أوزيريس بتمامه» يدل قضيبه الضخم المنتصب على أن الإله يحافظ على خلود القدرة الذكرية حتى في العالم الآخر، إذ كانت تتوفر فيه كفاءات الثور والتيس الجنسية. فقد كان باعثاً للذكورة بشتى صورها وموزعاً لنشوة الحواس برمتها، كما أنه لم يقتصر على منح المتع الجسدية للرجال فحسب، بل كان يمنحها للنساء أيضاً على أن يحملن تحت مآزرهن تمائم تستنسخ عضوه الإلهي. وقد حظي أوزيريس بوصفه سيد «هذه الحياة التي لا تنتهي في اللحد». و «راعي النشاط الجنسي» بشعبية واسعة جعلت منه موضوع العبادة الرئيس، في حين تقلبت شعبية غيره من الآلهة.

كان التخيل المبتكر لموت أوزيريس وخلوده تخيلاً إلهياً وإنسانياً في آن واحد، فقد أنسن أعمال الآلهة وأدخلها في دائرة الحياة اليومية، فجاءت شديدة القرب من الأذهان وبدت مقنعة بصدقها وصحتها على الرغم من تكذيب الخبرة الحياتية لها. كان أوزيريس الضحية البريئة لخيانة غادرة وغيرة خسيسة. فقد اختُلست منه حياته غيلة وغدراً ولكنها أعيدت إليه من أجل الخلود بفضل زوجه إيزيس ووفائها له، أضف إلى ذلك أن أوزيريس كان إله المصريين الأثير.

حَقَدَ سيت، إله الظلمات والجفاف، على أخيه أوزيريس لتهديد هذا الأخير له بالغرق في فيض أمواج النيل المتعاظم. ثم أن سيت كان يَحْسِدُ أخاه على ما ينعم به من اعتبار وتقدير في السماء كما في الأرض، وعلى ما يتمتع به من فحولة لا تضاهى، وعلى ما كانت تكنه له إيزيس الرقيقة، بخاصة، من حب دائم مقيم. ولإغواء أوزيريس، الطاهر الذيل والجامح الرغبة، حمل سيت أخته وزوجة نفتيس على سرقة رداء إيزيس المضمخ بالعطور وطلب منها أن تستلقي في مضجع أوزيريس الذي خالها إيزيس لحسن تنكرها وعظيم شبهها بزوجه، فضاجعها إذا أعمت بصيرته غريزة طاغية، وحدث، حقاً، ما كان سيت قد تخيله: فما أن ضاجع أوزيريس نفتيس الشبقة، لاختلاط الأمر عليه بفعل عطرها، حتى أثملته لذة عارمة وأخذه نوم عميق، فاستطاع سيت، إذاك، قتل هذا الجسد المسترخي والفاقد الوعي.. وقطع جثمانه أشلاء. جمعت إيزيس أشلاء زوجها وأخيها الغالي المبعثرة التي وجدتها جميعها، ما خلا القضيب، الذي ألقي به في مياه النيل فابتلعته إحدى أسماك الحنكليس (ومنه جاء تحريم أكل السمك على الكهنة المصريين). وصار بمقدور إيزيس، منذ ذلك الحين، أن تقوم بمراسيم الموتى ودفنهم. كان ينقص جثمان أوزيريس عضو الذكورة، العضو الذي لا بد منه للانسال، و «همزة الوصل بين الأزمان». ثم أن القوانين والأحكام التي أصدرها أوزيريس نفسه تقضي بأن يكون

جثمان الميت كاملاً ليحق له الاستمرار بالحياة بعد الموت. وفقدت إيزيس كل رجاء، لكن انوبيس، ثمرة اقتران أوزيريس بنفتيس والمولود بعد موت أبيه، هب إلى نجدتها وجمع أشلاء جثة أوزيريس بدقة متناهية فبدا الميت حياً واستبدل القضيب المفقود بقضيب اصطناعي. وأمام هذا الجسد المكتمل الأعضاء والملفوف بالكتان، والمشدود بالأربطة، جلست إيزيس القرفصاء وشرعت بإحياء القضيب المستعار فأدخلته بفيها ونفخت فيه من أنفاسها الإلهية. إن هذه الحركة المخصصة لإنعاش وإحياء عضو الذكورة الخامل تدخل في عداد المداعبات الطبيعية التي تتضمنها ألوان الضم والعناق والتقبيل الغرامية، فجعلت منها إيزيس شعيرة مقدسة، إذ استطاعت، بفضلها، أن تبعث في أوزيريس المتوفى القوة مرة أخرى. ومن اتحادهما الجديد ولدحورس، إله الشمس، الذي يشرق كل يوم على التوالي في السماء اللازوردية منتصراً على سيت ومبدداً ظلماته بسلطان أشعته منتقماً لأبيه. أما أنوبيس فقد أصبح معلم المحنطين، الذين يجهدون في الحفاظ على سلامة جثمان الميت وتمامه، وفق ما تقتضيه الديانة المصرية.

وعلى الرغم من كون حورس إلهاً للشمس فإنه لم يتماثل مع رع ولا مع آمون - رع (الاسم الذي كان يُعْبَدُ من خلاله إله الشمس في الجنوب) وهكذا فإننا نجد آلهة تتماثل فيما بينها تماثلاً كبيراً لكن المؤمنين كانوا يتضرعون إليها تحت تسميات متعددة ويعبدونها تبعاً لطقوس متنوعة، وقد توقف ذلك على ما كان يمنحه مختلف الملوك الفراعنة من إيثار لهذا أو ذاك من الآلهة، كما كان يتوقف أيضاً على التنافس الدائر بين الكهنة الذين يرئسون العبادات ويشرفون على المعابد أكثر مما كان يتوقف على الاختلاف في تقدير فوائد الآلهة وفاعليتها.

وقد اختلف ما حظي به مختلف الآلهة من تقدير تبعاً لعملية التطور نفسها التي سارت عليها شعوب بلاد الرافدين، إذ كان المبدأ: الناس على دين ملوكهم، هو المبدأ الذي يبت في أمور الإيمان والأخلاق، ما خلا بعض الاستثناءات ذلك أن أوزيريس قد تمتع بالحظوة نفسها في جميع الأراضي المصرية. وعلى مدى آلاف السنين، اكتملت أسطورة انبعاثه، بعد اغتيال سيت له وإحيائه بفضل إيزيس، بالعديد من التزويقات والتفاصيل المستحدثة مما أدى إلى تبوئه بالمقام الأعلى بين الآلهة.

وسوف لن تَفْنَى «كا» كل إنسان بعد وفاته إن تمكن من اللحاق بأوزيريس واستطاع أن «ينصهر في أوزيريس» إله الخلود «لأن أوزيريس لم يمت» ومن ثم فإن هذا الإنسان سيعيش إلى الأبد.

جسدت إيزيس أرض وادي النيل الخصبة، المحتفية بالبذور، وغدت، بفضل إخصابها السنوي بلقاح أوزيريس، مُوَزِّعَةً للغلال والمحاصيل. كانت تعلم النساء الأعمال المنزلية وفن المداعبات الغرامية، وتُبارك الحبل والحمل، كما كانت ممثلة للحب الأمومي. وكان المصريون أثناء الانقلاب الشتائي يعرضون تمثالها على شكل أم شابة ترضع وليدها الحديث العهد حورس.

كان المصريون في معابد إيزيس يخصصون لأخت أوزيريس وزوجه قضيباً يقوم بصنعه الكهنة ويحملونه في مقدمة تطوافهم وهم يغدقون عليه المديح.

وقد شجعت أسطورة القضيب الاصطناعي، المستخدم لتخليد اتحاد الزوجين الجنسي بعد موت العشير الغالي، المهرة من الكهنة على صنع هذه المسلات الصغيرة اللطيفة لتحفظ فيها أعضاء ذكورة الأزواج المصنوعة من القماش والشمع، كما ضم «جرن القضيب» أيضاً كتابة منقوشة تشهد على رغبة الأرملة في استعادة زوجها من العالم الآخر لتقرن به جسدياً. وقد جاء في أحد النصوص: «فهل لي، أيها الغالي، أن أقوم معك بعمل الحب في العالم الآخر مرة أخرى»؟

ترى هل كانت إيزيس مدينة للنساء المصريات، اللائي جعلن منها حاميتهن، بما حظيت به من تقدير باعتبارها زوجة عاشقة وأما حنوناً؟ أم أن أسطورة إيزيس قد أقنعت الأزواج بأن لنسائهم عليهم حقاً بما يهبنهم من متع جسدية وأفراح عائلية. أم أن الأسطورة، انطلاقاً من هذا الواقع، قد منحت النساء المساواة في الحقوق مع الرجال؟ وعلى كل حال فإن عبادة إيزيس وأوزيريس الثنائية كانت رمزاً للعلاقة الجنسية المثلى بين الزوجين.

فالنساء المصريات ما برحن يتمتعن بالحقوق الأمومية التي اندثرت آخر معالمها، آنذاك، في منطقة بلاد الرافدين. أن المشاهد المنقوشة على قطع الحجارة التي بحوذتنا لتدل على أن المرأة في وادي النيل قد شاركت في الحياة العامة، فكانت تأكل بصحبة الرجال وتشرب، وتمارس مهناً مختلفة، وتطوف في القرى والمدن بكامل حريتها، وتقوم بإدارة شؤون منزلها وتتمتع بأملاكها الخاصة وتورثها، بدورها، لبناتها.

ول يكن وضع ربة البيت - نبت بر - ليتزعزع إن كانت أماً. وقد جاء في التعاليم الأخلاقية التي تلقن للصبية المصريين في المدارس: «ينبغي ألا تنسى أمك. ضاعف الخبز الذي تقدمه إليها، واحملها كما حملتك هي من قبل، فقد كنت حملاً ثقيلاً عليها.. وبعد أن أتممت شهور حملك ولدتك، لتحملك على كتفها ثلاث سنوات أخرى وثديها ما فارق فمك، وهي لم تشعر، يوماً، بالقرف من أوساخك ولم تضجر منك، بل كانت تقول: ماذا أستطيع أن أفعل من أجله؟ ولما أدخلتك المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف، في كل يوم، إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت.. فلا تدعها أبداً ترفع يديها إلى الإله مستجيرة به من إهمالك».

كانت التعاليم الأخلاقية تحمي الزواج وترعاه. فقد وجد المصريون فيه هدفاً طبيعياً وبدهياً يتطلع إليه كل فتى بلغ سن الزواج. ونحن نقرأ في حِكَم بتاح - حوتب، الحكيم المرشد لأحد الفراعنة، ما دونه لابنه قبل عام ٢٨٠٠ للميلاد: «تزوج إن كنت أهلاً لذلك، وأحب زوجك في بيتها كما يليق بالزوج أن يفعل، أملأ بطنها، واكس ظهرها، وأدخل السرور إلى قلبها ما دامت لك. إنها مثال الحرث النافع لزوجها» ثم ينهي نصائحه على الشكل التالي: (.. استجب، ما دمت حياً، إلى جميع أمانيها،

واحرص على تحقيق هذي الأماني وبذلك تستحث زوجك على البقاء بجانبك، وإذا ما عارضتها كان في ذلك خرابك».

كان على الخطيب، أثناء عقد الزواج، أن يؤدي اليمين بإعادة البائنة إلى امرأته وتخصيص قسط من أملاكه الخاصة لها إذا ما تركها في المستقبل، سواء لأنه أحب امرأة أخرى أو لأنه فَقَدَ كل عاطفة نحوها. لكن تعاليم الزواج هذه كانت تتضمن بنداً أساسياً: «.. باستثناء حالة الخطيئة العظمى، الموجودة في النساء».

والخطيئة العظمى هي العقم، مثله في ذلك مثل زنى الذي كان يشكل سبباً وجيهاً للطلاق. فإذا ما ضبط الرجل زوجة متلبسة بالزنى كان في مقدوره أن يطردها من المنزل دون أن يعوضها بشيء. وبالمقابل فقد كان بإمكان الزوجة أن تعلم زوجها، طبقاً للأصول، أنها تريد أن تكون لرجل آخر، وتبين له طريقة تعويضها له عما سيلحق به من خسارة، دون أن يشكل تصرفها هذا حالة زنى. وإذا ما وقع ذلك كانت تكتب: «ما دمت قد كرهتك وأحببت رجلاً آخر غيرك فإني أتركك بوصفك زوجاً، ولسوف أعطيك مكيالاً ونصف المكيال من الفضة، وسأردّ لك، علاوة على ذلك، المكيالين ونصف المكيال التي كنت قد قدّمْتَها لي هدية خطبتنا». وإذا ما عزم الرجل على هجر زوجة غير المذنبة فمن حقها البقاء في البيت. إن أقدم رسالة طلاق وجهت إلى امرأة هجرها زوجها ليلحق بامرأة أخرى بدأت بالتصريح الواضح التالي: «إني أهجرك، فأنت، من الآن فصاعداً، لست زوجاً لي..»

وكانت بعض النسوة، أحياناً، يعقدن زواجاً مؤقتاً يحدوهن إلى ذلك هدف محدد وهو أن ينجبن أطفالاً شرعيين. فإذا ما بلغ هذا الهدف غايته فإن سند فسخ الزواج يضع نهاية لهذه العلاقة: «وما أن أُنجبَ أطفالي تكونُ قد قُمتَ بإشباع رغبتي وأصبحتَ حِلاً من التزاماتك الزوجية»..

ولكي لا تقع النساء ضحية للخطيئة العظمى كن يلتزمن بالقيام ببعض الطقوس. فكن مثلاً يعبدن ويتلمسن قضيباً مقدساً، أو كن يترددن على زيارة ثور أبيس في ممفيس. وأمام هذا الرمز الإلهي للقدرة على الإنجاب كن يَحْسِرْنَ تنانيرهن عن بطونهن ويتجردن من ملابسهن ليظهرن للثور المقدس ولأزواجهن ما يعتورهن من رغبة في الجماع والإنجاب. وقد يحدث أن تضاجع نسوة فقراء المزارعين أو البنائين التيوس (المعز)، يدفعهن إلى ذلك خوف مروع من الخطيئة العظمى - العقم - ويؤملن، بفعل ذلك، أن يخصبن ليمنعن أزواجهن من معاشرة نساء أخريات رغبة منهم في الحصول على الأولاد.

وما تكشفه لنا النقوش والصور حول عادات وأعراف نساء مصر ورجالها لا تتعلق، إلا نادراً بطبقات المجتمع الدنيا. ترى هل كان هؤلاء يقتدون بالأغنياء من السكان وذوي السلطان؟ أم أنهم كانوا جميعاً يستسلمون، ببساطة، إلى ما فطروا عليه من غرائز في أكواخهم الضيقة والمصنوعة من كتل الطين الجاف؟ أم أنهم كانوا يخضعون إلى نواظم أخلاقية شائعة.؟ فنحن لا نستطيع أن

نقيم الوقائع بالدليل القاطع، إذ لم يكن ليتوفر للمعوزين تحنيط جثمانهم عندما يموتون، أو أن يشتروا لأنفسهم القبور الباهظة التكاليف، بحيث يمكن لنقوش لُحُودِهِم أن تنقل للأجيال القادمة واقع ظروف معيشتهم بدقة، بل إننا لا نملك وثيقة تكشف لنا بجلاء كيف كان يعيش هؤلاء العمال الذين أشادوا الأهرامات الهائلة والمعابد العظيمة، وكيف كانوا يمارسون علاقاتهم الجنسية. جل ما نعرفه أنهم كانوا يسكنون بالآلاف في أكواخ أو تخشيبات مؤلفة من أعداد لا تحصى من صفوف الغرف الصغيرة المبنية من الطين والآجر. ومع ذلك فإن بإمكان أن نفترض أن الحب كان يعود على هؤلاء أيضاً، على الرغم من بؤس حيواتهم وشقائها، ببعض المتعة.

لكننا نعرف، بالمقابل، من خلال العديد من الوثائق والبيّنات كيف بنى هؤلاء قصور الأغنياء وبيوتهم وكيف جهزوها. ففي الأبنية الفسيحة كانت تنتصب وتتوزع الخزائن المطعمة بالعاج، والأسِّرة، والكراسي، ومواطئ الأقدام، والمقاعد المرتفعة، والموائد، وقد رُصِّعت جميعها بالمعادن الثمينة وتغلبت، بمتانتها، على عوادي الزمان ونوائبه. كما أننا نعرف، مما احتوته أضرحتهم، ما كان يفضله أغنياء المصريين من ألوان الطعام...

فعلى الجدران صور تمثل نذور الموتى الخاصة بإعالة الـ «كا» قرينتهم. فهم يؤملون مثلاً أن يتناولوا في عالمهم الآخر ما كانوا قد تناولوه من الطعام والشراب في عالمهم الأرضي: عشرة أصناف من اللحوم المتنوعة، خمسة أصناف من لحوم الدواجن، ستة عشر صنفاً من الجعة، ألوان منوعة من الفاكهة والحلاوى، كما كانوا يعبرون عن رغبتهم في التمتع باستعمال أدواتهم وأمتعتهم المفضلة: الملابس، والحلي، ومستحضرات التجميل التي كانوا يستعملونها خلال حياتهم.

وقد وضعت بعض النسوة المغناجات الأنيقات في غرف أضرحتهن أنواعاً مختلفة من مساحيق الجمال ونوعين من أحمر الشفاه ليكون بوسع قرينتهن الرحيل إلى العالم الآخر بشفتين حمراوين وأظافر ملونة وخدين مخضبين متوردين. وكان من الضروري أن يوضع تحت تصرفهن زيوت معطرة لشعورهن وأجسامهن، وخضاب أزرق لتكحيل جفونهن. فقد كشفت هذه الغرف عن كل ما يمكن أن يسهم في العناية بالجمال ويحافظ على الصحة في العالم الآخر: مرايا، وأدوات تجعيد الشعر ودبابيسه، ومواسي، وكؤوس، وقوارير تحتوي على مراهم وأدوية أوصى بها الطبيب للمتوفى قبل موته: دم الضب المخثر ومخ السلحفاة المهروس وحليب امرأة نفساء أو بول امرأة طاهر لتكتمل بها الأدوية المتداولة والموزعة في أوان من المرمر أو العاج أو الذهب أو البرونز.

ومع ذلك فإننا لم نعثر، في القبور كافة، على أثر لتلك الأدوات الواقية الصغيرة التي أوصى بها الأطباء لنساء مصر قبل الميلاد بألفي عام، وذلك أن النساء اللائي يحرصن على تجنب تبعات العلاقات الجنسية خارج بيت الزوجية كن لا يرغبن في توريث قرينتهن وزر مثل هذه الخطيئة، لخشيتهن من عقاب يصيبهن

بالعقم بعد الموت، كما كن يرغبن، في العالم الآخر، في نسيان ما ارتكبنه من شطط جنسي ومغامرات عشقية حتى ولو كانت الشريكة المحرضة هي الإلهة حتحور اللطيفة.

كانت حتحور إلهة الجاذبية الجنسية والحب بلا قيد، فكانت ترافع، في حضرة أوزيريس، بحسن بيانها وبليغ لسانها، عن قضية من ركن إليها من النساء اللواتي انتهكن حرمة الزواج. واسم حتحور كان يعني: «مقر حورس» إذ كانت تستقبل بداخلها، كل ليلة، وبعد أن ينتهي من تطوافه الشمسي، الإله حورس الذي يحمل رأس صقر، وكان شعارها الحلقة «مينات» إن أياً كان، من الرجال أو النساء، امتلك أو لمس حلقة نالت التبريكات في معبد حتحور، سيحظى بكفاءة متميزة في ملذات الحب.

وكانت عابدات حتحور يستسلمن لرغباتهن إلى أقصى الحدود فليس ثمة تعاليم تلزم الفتيات بصون عذريتهن حتى الزواج. بل كن يتعلمن فنون الحب ويمارسنها على هواهن دون أن ينتظرن، بنفاذ صبر، زوج المستقبل. فإن لم تف النظرة الغرامية بالغرض أتبعنها بالرسائل والقصائد الغرامية يتوجهن بها إلى المختار ليكون حبيباً أو زوجاً:

«يا لحلاوة الاستحمام في حضورك
في الماء، يبتل ثوبي الملوكي النسيج
ويلتصق بجسدي، فيتسنى لك مشاهدة جمالي.
عندما أذهب معك إلى البحيرة
أجلب لك سمكة حمراء متلألئة كالمرأة تتمدد بجمال
بين أصابعي.
تعال انظر إلي»

وبين أيدينا قصة لأحد العشاق وقد استجاب لدعوة للاستحمام مع من يحب: «فإذا ما ضممتها وقبلتها انفرجت شفتاها، وسكرت من غير خمر». ثم يردف قائلاً: «.. في الوسط من معقل جميلتي باب مشرع الأبواب». ولدينا وثيقة من عهد الأسرة التاسعة عشرة أو العشرين تضرب نغمة حديثة على أوتار الحب القديمة جاء فيها:

«إن غرام حبيبتي يقفز على شاطئ الغدير
وفي الظلام تمساح رابض
ولكنني انزل إلى الماء وأواجه الأمواج

ويشتد بأسي فوق الغدير
ويكون الماء هو والأرض تحت قدمي سواء،
لأن حبها يملأ قلبي قوة.
فهي لي كتاب من الرقى والتعاويذ.
وإذا رأيت حبيبتي مقبلة ابتهج لمرآها قلبي
وفتحت ذراعي ومددتهما لأضعهما إلى صدري
وينشرح قلبي أبد الدهر.. لأن حبيبتي قد أقبلت
فإذا ما ضممتها كنت كمن في أرض البخور
وكمن يحمل العطور،
وإذا قبلتها انفرجت شفتاها
وسكرت من غير خمر،
يا ليتني كنت جاريتها الزنجية التي تقف بين يديها،
حتى أرى لون أعضائها كلها»..

وقد ارتاب الآباء والمربون من طيش الفتيات وسرعة استجابتهن وسخائهن ومهارتهن في السحر والإغراء، وها هو الحكيم بتاح حوتب ينصح ابنه بالتحلي بالحيطة والحذر: «وإذا أردت لصداقتك أن يطول عهدها في بيت نزلت فيه أخاً أو صديقاً، فاحذر الاتصال بالنساء أياً كانت الغرفة التي إليها تدخل، فلا خير لك في مكان حللن فيه، والرجال يفقدون الرشد لمرأى كشوحهن الرائعة. وستدرك، إذاك، أن النساء أشد قسوة من جلمود الصخر، إن في طيش لا احتراس فيه وهنيهات تتلاشى كما الحلم، موت محقق».. كما نقرأ في بردية أخرى: «احذر المرأة التي تأتيك من الخارج، المجهولة من أهل مدينتها. فإذا أتت لا ترفع بصرك إليها وتصرف كأنك لا تعرفها، إنها كالدردور في المياه العميقة لا يسبر لها غور ولا يعرف لها قرار. وأن امرأة غاب عنها زوجها وسألتك: ألست جميلة؟، فإن غاب الرقيب نشرت حولك شباكها. وما أشنعها من جريمة عقابها الموت إذا أصغى إليها الإنسان».

ولم تكن تستهدف هذه التحذيرات إلا النساء المتزوجات والفتيات اللائي يسعين إلى الزواج، إذ كان الرجال ينعمون بكامل حريتهم في إشباع شهواتهم الجسدية بين أحضان «الراقصات» اللواتي أطلق عليهن تورية «موزعات الفرح» بهدف إضفاء طابع مسكن غير مسيء على حضورهن في مجالس اللهو والطرب. ولم تكن هؤلاء الفتيات، المتمنطقات بزنانير بسيطة ضيقة يشددن بها أوراكهن، في عداد المدعوين، بل كن

أعضاء في عداد الأسرة الواحدة، أما سيدة البيت التي كانت تزدهي بثوبها الفضفاض وقد عقدته تحت نهدها الأيمن بإيزيم مرصع بالأحجار الكريمة، فلم تكن لتجد ما تعترض به على هؤلاء الرجال المنصرفين إلى تمتيع حواسهم متجاوزين حدود المتعة بالنظر إلى تلك الأجسام العارية الغضة الناعمة. كما أن انفراد الضيوف وسيد البيت بالراقصات كان يدخل في عداد تلك الترفيهات أو تلك المداعبات التي تتضمنها مآدب الأشراف التي تتضمن ألوان الخمرة والجعة والمراوح المضخمة بالعطور والمصنوعة من الأرياش الملونة، تنعش بحركتها الرتيبة الموزونة المدعوين الذين احتدمت في عروقهم رغبة عارمة.

«العطور والزيوت تقدم إليك لتشمها
أكاليل من أزهار اللوتس لمحبوبتك
الجالسة إلى جانبك والساكنة في قلبك
دعونا نستمع للغناء والموسيقى
أقبلي أيتها البهجة وليذهب الهم والغم
فسوف يأتي اليوم الذي نقترب فيه
من الأرض التي تحب السكوت»

«من كتاب طيبة في عهد أمنحوتب الثالث - ترجمة إبراهيم رزق - المترجم».

ولا يرى المصريون، في العلاقات الجنسية العابرة أو التي حدثت اتفاقاً مع فتيات لعوبات طائشات، علاقات عهر وزنى، فهذه العلاقات لا تدان بوصفها فسقاً، على ألا ترتكب، قطعاً، في أحد الهياكل أو المعابد أو أحد الأمكنة المقدسة، أو أمام أحد مذابح الآلهة، أو على مقربة من أحد الحيوانات الإلهية. أو لَمْ تخلق الآلهة متع الحياة ولذائذها لينعم بها جميع الخلق؟ وكيلا يصيب من شارك في تزجيات الوقت هذه أي سوء، كان لا بد لهذه التسليات، من أن تنال قبول الزوجة فحسب، إذ كان بإمكانهم التبجح بممارسة مثل هذه الملذات الفاجرة والإشادة بها، دونما مداورة، والتوصية بها أيضاً لقرينتهم في العالم الآخر، على مثال ما قام به كاهن آمون إذ كتب على ضريح الفرعون نفرحوتف «احتفل بيومك السعيد وضمخ أنفك بأطيب العطور، وزين منكبيك وجيدك بإكليل من الزهور، ولتكن أختك، الغالية على فؤادك، بجانبك، ولتصدح الألحان والأصوات العذبة تحف بك من كل جانب». فالأخت هي الزوجة، والأخوات العزيزات على الفؤاد هن العشيقات والحظايا اللائي يجملن حياة صاحب المقام، شريطة أن تكون الزوجة راضية. وقد كان كبار السادة يقتدون، في حياتهم، بكل صغيرة وكبيرة يقوم بها الملك. إن نمط حياته الباهظة النفقات وما ينعم به من حرية في السلوك والتصرف كانت لهم مثالاً يحتذى.

اقتضى العرف، الذي حافظ عليه المصريون، ألا يتسنم ابن البيت الأعظم العرش إلا بعد اقترانه بأخته، بيد أم الملوك لم يكتفوا بالزواج بأخت واحدة بل كانوا يضاجعون العديد من أخواتهم بل وبناتهم لضمان ذرية السلالة الملكية. ذلك أن الدم الإلهي للسلالة الملكية يحافظ على نقائه إن اقترن رجال البيت الأعظم بنسائه. وقد استساغ المصريون أن يسرح الملوك الفراعنة ويمرحوا مع بناتهم وأخواتهم، إذ رأوا في تصرفهم هذا تصرفاً طبيعياً للغاية. إن كل ما يجري في حرم قصورهم المقدس كان فائق السمو طاهراً وبريئاً.

فكان لا بد للفرعون وأقربائه في البيت الأعظم من أن ينعموا ويتمتعوا بهذا الفاصل الزمني من عمر قرينتهم ما بين الولادة والموت كما سينعمون لاحقاً بحياتهم القادمة، الحياة الحقة، ألا وهي الحياة الإلهية. ثم أن على الفرعون أن يمارس الجنس ويغشى النساء على هواه، وعليه أن يقنص ويصطاد إن استبدت به نزوة القتل أو يدجن طريدته، وعليه أن يلهو بصيد السمك ويتسلى بنصب الشراك للطيور، ليبرهن على أن سلطانه يطول مملكة الحيوان أيضاً. ففي الليالي الممطرة، التي لا تشجع على إقامة مجالس اللهو على النيل وضفافه، آثر الفرعون الترويح عن نفسه بالنرد والداما. كما أحب أيضاً مشاهدة حلبات المصارعة والملاكمة، بيد أن مشاركته فيها كانت بلا جدوى، فهل يليق بالفرعون أن يظهر للعيان أن ساعديه وساقيه الملكية أصلب أو أضعف من عود بني البشر؟ ذلك أن المصارعين والملاكمين على يقين من أنهم سيعرضون حياتهم للخطر إن هم تغلبوا على الفرعون أو على أحد أفراد البيت الأعظم أو على أحد أصحاب المقام الرفيع، فآثروا الهزيمة على الفوز. إن صراعاً هذا شأنه إذ انكشفت نهايته لم يكن إلا ليزرع الملالة في النفوس. ولسوف لن يمنح المتعة لصاحب المقام الرفيع إلا إذا أتاح له صراع كهذا ممارسة بعض العنف، كأن يجرح عين أو قضيب خصم ما بَرَحَ، في جميع تحدياته السابقة، يرغي ويزبد إعجاباً وتيهاً. ولم يكن عقاب بتر الأعضاء الجنسية ليقتصر على الملاكمين والمصارعين الذين يظهرون على الملأ تفوقهم في الصراع. إذ كان العضو التناسلي لأحد الأعداء من أثمن الغنائم التي يفوز بها المحارب، ثم أن القائد الذي يطمح إلى إعلاء مكانته العسكرية كان يقدم إلى الملك، برهاناً على انتصاره، سلة طافحة بهذه الغنائم المثيرة للشفقة.

بيد أن الغنيمة السلبية تلك لم تعد تفي بالغرض مع اتساع حملات جيوش الفرعون، وإخضاع أقاصي البلدان وأبعدها وضمها إلى مملكة مصر العظمى. ولم يعد حرمان الخصوم والأعداء من أعضاء ذكورتهم مما يبهج ويسر إلا بقدر ما يرضي ذكورتهم الخاصة بهم.

وقد الحق بالبيت الأعظم بيت صغير: بيت نساء الملوك الفراعنة الذين لم يكتفوا بأخواتهم وبناتهم، إذ جرى العرف أن يتلقى الملوك الفراعنة هدايا من أصدقائهم المغاربة أو جزية من البلدان المقهورة تضم أجمل فتيات الأقطار الأجنبية،

وأن يطالبوا بنصيبهم من الغنائم فيختارون من أسيرات الحرب أكثرهن فتنة وإغراء. مما أدى إلى تعاظم عدد النزيلات في بيت نساء الملك.

كان بيت النساء الملكي محكم الإغلاق، إذ قام على حراسته رؤساء الحرس، فحالوا دون أن تقيم «الحبيسات» - تلك هي التسمية التي كانت تطلق على النساء المكرسات للفرعون - أي اتصال مع الخارج. وقد حمل هؤلاء الحراس ألقاباً مثل: «ذاك الذي يحافظ على سجون الحظايا» أو: «ذاك الذي يقدم الحريم للملك ويحضر حفلات الرقص». وكان تحت أمرة هؤلاء الخدم، المهيبين الحريصين على تهيئة الأجواء المناسبة واستبعاد كل ما يمكن أن يعكر صفو ملذات الملك الحميمة، جيش من الحرس والكتبة ينقلون إلى إدارة البيت الأعظم مطالب الحظايا ورغائبهن ويستلمون ما طلبن من حوائج: الجواهر والحلي والثياب والأدوات اليومية والحلاوى النادرة التي اضطروا إلى جلبها من البلدان القصية، فإذا ما فازت هؤلاء النسوة بحظوة الفرعون ومحبته، طلبن بعض المأكولات النادرة فيؤتى بها من موطنهن.

وغالباً ما نالت الحظايا ألقاباً رفيعة، إذ أطلق عليهن: «زينة الفرعون» أو «تلك التي تسعد فؤاد الفرعون في كل وقت». وقد ينجح أحياناً بعض من هؤلاء الحظايا، ممن بَرَعْنَ في فنون الحب، في أن يحتفظن، لسنوات عدة، بما فزن به من حظوة وإيثار لدى الفرعون، فيمنحهن الفرعون، ساعتئذٍ، مهراً سخياً ويزوجهن لأصدقائه المقربين أو الجديرين بهذا الشرف، ويفاخر هؤلاء الذين شرفهم الفرعون بحظاياه بان ينقشوا على أضرحتهم: أنهم عاشوا حياتهم الزوجية مع إحدى سراري الفرعون معبرين عن أملهم في أن يروا المحكمة العليا تأخذ باعتبارها هذا الشرف العظيم الذي تتمتع به قرينتهم.

لم يحظ بالدخول إلى بيوت نساء الملك إلا الخُلّص من الأصدقاء الحميمين، وعلى هذا، لم يتوفر لدينا إلا النزر اليسير من الأدلة حول ما كان يجري داخل هذه البيوت. وتروي لنا واحدة من أوراق البردي أن الفرعون كان ينظم فوق مياه النيل ألعاباً مائية: «عشرون من الفتيات الأبكار بقدود لطيفة تشرح الصدر، ونهود عامرة، وشعور مجدولة» وقد خلعن ثيابهن، واستبدلنها بقمصان من الشبك ذات الثقوب الصغيرة، ويجدفن بمجاديف من خشب الأبنوس المذهب».

وتظهر لنا الأشكال المنقوشة على الحجر أن كسوة الفرعون ونسائه في البيت لم تتجاوز خفين للقدمين وزينة للرأس، إذ آثر الفرعون أن يكون والنساء اللائي يتحدث معهن ويمرح عراة.

وقد ضم بيت النساء، إضافة إلى الحظايا، ما أنجبنه من أولاد للفرعون، يضطلع بتربيتهم مربون خاصون يعملون على تهيئتهم ليشغلوا المناصب العليا في كل من البيت الأعظم والمعابد، فقد ولد للفرعون رمسيس الثاني، في بيت النساء، أكثر من مئتي طفل، نصفهم في الأقل، من البنات يُهيأن ليصبحن زوجات لذوي المقامات الرفيعة. وكان لابد من موظفين كبار ليشغلوا المناصب الرئيسة في البلاط والسلطة لخدمة الفرعون نفسه. وقد كان هؤلاء الموظفون على اتصال مباشر

بالفرعون الذي كان يربطهم به بروابط عائلية، وذلك من طريق تزويجهم ببناته من حظاياه، حرصاً منه على ضمان ولائهم وتفانيهم في خدمته.

وقد رأى القادة والحكام ومن كانوا يشغلون المناصب الإدارية العليا، في الوقوف على خدمة الفرعون وتزيينه شرفاً رفيعاً، فكانوا يتعلمون فن قص الشعر وحلق اللحية ليستطيعوا، من ثم، أن يضيفوا إلى ألقابهم المهيبة لقباً آخر جديداً مثل: «المكلف بالجمال الملكي». ويتدربون على قص الأظافر وتدريمها ويتنافسون على شرف الاعتناء بيدي الفرعون وقدميه.

ويبتكرون خلائط ذكية الرائحة من خلاصة العطور. لتنشر على بشرة الفرعون وأنفاسه أريجاً كأريج «أزهار الحديقة» ويتلقون فن تزجيج الحواجب، على أيدي مصورين مهرة، ليخرج الحاجب من تحت أناملهم تام القوس. كما كانوا يتعلمون تلوين خدي الفرعون باللون الأحمر الخفيف وشفتيه باللون الأحمر الداكن.

وكان الفرعون إذا ما عدل عن خدماتهم ومبادراتهم، مؤثراً أن يعهد بزينته إلى متخصصي العناية بالجمال، تفاخرت خاشيته بإلباسه ثيابه، أو بوضع التاج على رأسه المهيب، ولقبوا أنفسهم باعتزاز «المكلفين بالإشراف على زينة الفرعون». فارتبطت كل قطعة من ثيابه بوظيفة يتباهون بها فينقشونها على أضرحتهم. وكنا نجد «المكلفين بصندوق مستحضرات التجميل» و «المكلفين بأقلام الزينة» و «حامل خفي الفرعون» «ذاك الذي يصير جديراً بالسهر على تنفيذ القانون». غير أن حيوات هؤلاء وبخاصة موتهم لا يمكن، في كل الأحوال، أن ترقى، ببهائها ومقامها، إلى مستوى حياة الفرعون وموته، على الرغم من ألقابهم الرنانة وانتسابهم إلى الطبقة الراقية التي تزداد قوة وثراء مع تعاظم سلطان الفرعون، وعلى الرغم من حياة الترف والبذخ التي يحياها الرجال والنساء من أقرباء الفرعون ونسبائه. ثم أن للفرعون عليهم جميعاً سلطاناً ونفوذاً طاغيين، إذ كان بمقدوره أن يقيم الدليل على تحدره المباشر من الإله. فكان لابد للفرعون من برهان كهذا، وذلك ما تؤكده أسطورة أحد الرسوم المحفورة على الحجر، وتمثل رجلاً وامرأة يتجامعان، ذلك أن حتشبسوت، بنت تحوتمس الأول، زوجة أخيها لأبيها تحوتمس الثاني، التي حكمت مصر بعد وفاة زوجها، قد أرادت من خلال هذا النقش أن تقيم الدليل القاطع على أصلها الإلهي لتبديد كل الشكوك الممكنة حول ذلك، فرسمت أمها أحمسي تلهو وترتع مع الإله آمون - رع في سرير الأبهة والعظمة وقد احتضنته مطبقة عليه بساقيها بعد أن اتخذ الإله شكل زوج أحمسي، الأب الحقيقي لحتشبسوت. وتكشف لنا الكتابة المنقوشة أن القصة برمتها ليست سوى اختراعاً. «.. وهذا ما قاله الإله آمون - رع، ملك الآلهة، حينما اتخذ شكل هذا الرجل، ملك مصر العليا والسفلى، تحتمس الأول، إذ وجد الملكة مستلقية على السرير في قصرها البهي، فأيقظها فيض عطر الإله ونوره وافتتنت به، وما أن اقترب منها حتى امتلكها، مسنداً صدره إلى صدرها، فتجلى لها إلهاً، وحين قدومه اجتاح الملكة، لمرأى جمال الإله، إحساس فائض،.. كانت أنفاسه وأطيابه تنشر

أريجها. فانساب حب الإله في كيانها، كما انساب عطره في كل جوارحها. وهذا ما قالته زوجة الفرعون، الملكة أحمسي، إلى آمون - رع: «لكم هي عظيمة أنفاسك، وها أنا بكامل أعضائي أتشرب نداك». فقال لها الإله بعد أن أروى غليله منها: «أنت يا زوج آمون، الأولى بين النبيلات، نبيلاً، حقاً، سيكون اسم ابنتك التي ستخرج من بطنك، لأن ما جرى عليه لسانك كان نبيلاً. وسوف تسوس هذا البلد من أدناه إلى أقصاه بسلطانها الزاخر بطيب أعمالها، لأن روحي حلت فيها وإرادتي ملك لها وتاجي يتوج رأسها، كيما تحكم المملكتين وتقود قرينة الأحياء أجمعين...». ولا بد أن تستسلم قرينة الأحياء منقادة لها وذلك لأن هذه الصور الجميلة المتآلفة مع التقاليد العريقة تتهدد المخيلة.

وقد هيمن على المصريين، خلال آلاف من السنين، الإيمان بآلهة تجسد كل الظواهر الطبيعية تحت أشكال إنسانية أو حيوانية، كما هيمنت عليهم أيضاً فكرة السفر الطويل الذي يحتم على الـ «كا» القيام به بعد الموت. وأثناء هذا السفر سيتهدد الت «كا» تصاعد للشر غير مرئي وشياطين من كل نوع، تلك المخلوقات الخطيرة التي تؤازر الإلهة معاتي (معات) «حارسة النظام والأخلاق» التي كانت تنتظر، بدورها، الـ «كا» في قاعة رحبة مع أربعة وعشرين[1] من القضاة. عندئذٍ تقدم الـ «كا» بياناً عن حياتها الأرضية وتسعى لتظهر امتثال أعمال حياتها «الأرضية» للقوانين الأخلاقية الأساسية الأربعة والعشرين.

ثم أن بصيرة معاتي النافذة كانت تكشف جميع الأسرار، فقد اكتسبت بفضل خبرتها المتراكمة في ممارسة وظيفتها العليا، مثل هذه المعرفة عن الحياة الدنيا ومثل هذا الذكاء والفطنة في اكتشاف البواعث التي تتصرف بالإنسان وتتحكم به، وغدت على علم بجميع أسرار الأفعال الإنسانية وخفاياها. أضف إلى ذلك أنها كانت تتمتع بامتياز ومزية حياتها الزوجية مع ثوث، إله العلم والكَتَبَة، إذ درج الكتبة على البوح، لحاميهم، بأسرار الموتى بتسجيلها في جميع الصور والكتابات التي ينقشونها على الحجر أو تلك التي يصورونها على ورق البردي. كانت معاتي زوجة أخ أنوبيس ونجية الابن الذي أنجبته نفتيس من أوزيريس، ذلك الابن الذي ساعد إيزيس في ترميم جثمان أبيه فغدا معلماً للمحنطين، فكان يعرف تمام المعرفة بنية المخ والقلب والكبد والكليتين والأحشاء التي تستأصل من الجثة بمهارة فائقة قبل تحويلها إلى مومياء ووضعها في اللحد.

١- في كتاب السير ويس بدج: الديانة الفرعونية، ترجمة وتقديم: يوسف سامي اليوسف بلغ عدد القضاة اثنين وأربعين قاضياً - المترجم.

أننا مدينون لهيرودوت بتقريره المفصل حول المحنطين وفنهم: «أول ما يفعله المحنطون أن يستخرجوا المخ من المنخرين بخطاف من الحديد، فإذا ما انتزعوا جزءاً منه بهذه الطريقة أخرجوا ما بقي منه بإدخال بعض العقاقير فيه، ثم يفتحون فتحة في جنب الميت بحجر حاد ويخرجون جميع أحشائه، فإذا ما غسلوا البطن ونظفوه بنبيذ الخل رشوا عليه العطور المسحوقة، ثم ملؤوا البطن بالمر النقي وبعطر العشبة وغيره من العطور، وأعادوه بالخياطة إلى ما كان عليه من قبل، فإذا ما فعلوا هذا كله غمروه في منقوع مركبات النطرون وتركوه فيه سبعين يوماً، وتركه أكثر من هذه الوقت مخالف للقانون. فإذا انقضت هذه الأيام السبعون غسلوا الجثة ولفوها كلها في أحزمة من القماش المشمع (قماش بيسوس)، وغطوا هذا القماش بطبقة من الصمغ الذي يفضله المصريون على الغراء، وبعد أن يتم هذا كله يسترد أهل الميت الجثة ويصنعون لها صندوقاً من الخشب على صورة إنسان يضعونها فيه فيحكمون إغلاقه ويودعوه لحداً وهو واقف مستند إلى الجدار...». (قصة الحضارة - المترجم).

كانت معاتي على علم تام بخفايا الميت وأمانيه الحميمة، إذ كان بمقدورها أن تقرأ ما دونته أسرته على ضريحه، فيجيء حكمها معصوماً عن الخطأ، وبما أن هذه الإلهة العظيمة كانت امرأة، فقد أعلت من شأن ما يُكِنُّه الرجال من احترام وتكريم لنسائهم، فأشادوا بنسائهم بما سجلوه على أضرحتهم: «إنهن مثال يحتذى في التقوى والمحبة والرأفة واللطافة تجاه الغير» و «مثال للاحتشام والرزانة في أفعالهن وحركاتهن ومظهرهن». وقالوا عنهن: «نصيرات الضعفاء». ومجدوا ما اتسمن به من «احترام للفقراء» و «إخلاص لسادتهن» فمن كَرَّمَ زوجه وأشاد بعفتها كان جديراً بتقدير معاتي له، اللهم إلا إذا بلغ تهتك الزوجة - موضوع المديح -، من الوضوح والجلاء، حداً يستحيل على معاتي والزوج تجاهله. فيغدو المديح الكاذب، في هذه الحالة، خداعاً بيناً، ولا يعد، البتة، أكذوبة خيرة يقبل بها الكهنة وتغض معاتي الطرف عنها.

كانت فضيلة كاهنات المعبد، الرفيعات المقام، فوق كل الشبهات، إذ أطلق عليهن: «خطيبات الإله» أو «العابدات الإلهيات»، إنهن بنات الفرعون أو حفيداته المولودات في البيت الأعظم، فكن أثناء الاحتفالات الرسمية، يوجهن الراقصات والموسيقيات اللائي ينهضن بأعباء الدين. ونحن لا نملك، باستثناء منحوتة صغيرة تمثل عناقاً عشيقاً للإله آمون - رع وقد احتضن بقوة الأميرة أميناردیس، إلا القليل من التلميحات حول العلاقات الرقيقة الطبيعية القائمة بين هؤلاء الخطيبات الورعات والآلهة وكهنتهم، ففي معبد آمون - رع كانت تعيش «المنزويات الحبيسات» من

الموسيقيات والراقصات اللواتي يحتجزهن الكهنة في بيت النساء تحت حراسة مشددة على غرار بيت حريم الفرعون. وقد أثار نفاق كهنة آمون - رع الفاسق سخط الفرعون أمينوفيس الرابع، فجعل من الشمس الإله الأوحد، ذلك لأنه ليس للعالم إلا إله واحد هو آتون، وحظر عبادة إله آخر غيره في مملكته، واستبدل باسمه اسم إخناتون (آتون راض).

وآتون، لقب للشمس بوصفها القوة الذكرية للحرارة ومصدراً للحياة فكان لا بد من أن يحل هذا الاسم، من الآن فصاعداً، محل «الله» إنه اسم للخالق ودليل على كل حياة. بيد أن تلك الفترة الوجيزة التي جلس فيها الملك اخناتون على عرش مصر لم تساعد على انتصار مبادئه الأخلاقية الصارمة، كما أن اقترانه المثالي بنفرتيتي الجميلة لم يترك أي أثر في التقاليد القديمة، ذلك أن الإيمان الراسخ، منذ القديم، في الاستمرار في العالم الآخر وفي اتحاد الـ «كا» مع أوزيريس في الحياة المقبلة الشبيهة بانبعاث أوزيريس، قد انتشر عن طريق الكتابة الهيروغليفية التي ما برحوا ينقشونها على الحجر، في الوقت الذي كان يُعَمِّم فيه الكهنة قواعد سلوك الـ «كا» بنشرها في أوراق البردي. فمن وجد في حوزته، حين وفاته، واحدة من أوراق البردي هذه المسماة بـ «كتاب الموتى» وقد دفنت مع موميائه، ضمن لقرينته دليلاً ثميناً يقوده إلى أوزيريس ويبلغ به الانبعاث من جديد، وما عليه إلا أن يتبع ما تضمنته من تعليمات لكي يتغلب على العقبات الخادعة التي ينصبها، في طريقه، الشياطين.

ويشير كتاب الموتى، كلمة فكلمة، إلى الاستجواب الذي ستخضع له «الكا» في محكمة معاتي العليا مع قضاتها الأربعة والعشرين قبل اندماج الـ «كا» وانصهارها في أوزيريس، الحي أبداً. ولا يعني ذلك أن على الـ «كا» أن تجيب، من خلال مواجهة معارضة، على أسئلة القضاة، إذ تقتصر تصريحات المتوفى واعترافاته على تأكيد صريح بأنه لم يرتكب قطعاً عدداً من الأعمال التي تستوجب اللوم، ذلك أن اعترف الـ «كا» كان اعترافاً سلبياً. وهو عبارة عن مرافعة يشهد بواسطتها المتوفى أنه لم يخالف التعاليم الأخلاقية وبنود الإيمان التي يقوم عليها النظام الاجتماعي المصري، وليس ثمة أوامر في كتاب الموتى، فهو لم يقل: «عليك أن تحيا هكذا...»، بل هو كتاب يتضمن محرمات لن يستطيع كل من يخالفها، أثناء حياته الأرضية، أن يفوز ببراءته من القضاة الأربعة والعشرين، ويفقد، من ثم كل حق من حقوقه في الحياة الأبدية.

كان على المتوفى، والحال هذه، أن يقسم بأنه لم يرتكب إثماً قط: إنني لم أنتهك، البتة، حرمة الزواج في مكان مقدس».. «إنني لم أرتكب اللواط قط».. «أنني لم أصم أذني عن نداء الحق والعدالة».. «إنني لم أكن قط عنيفاً مع إنسان واحد».. «أنني لم أضاجع، يوماً، زوجة أحد».. «إنني لم ألعن الآلهة مطلقاً». «بل امتنعت، طوال حياتي، عن الاتيان بكل عمل يثير اشمئزاز الآلهة». وتؤلف مختلف بنود هذه المرافعة تعداداً مفصلاً للمحرمات التي فرضها الكهنة، باسم الآلهة، على الشعب المصري والتي تتوعد مرتكبيها بحرمانهم كلياً من الحياة الأبدية.

جعل الكهنة من كتب الموتى تجارة رابحة، إذ كانوا يستحثون زبائنهم على الوقاية، في أضرحتهم، بالتزود بتمائم سحرية تكفيرية من الأسماك والأفاعي وبخاصة من الجعلان، نظراً إلى كفاءتها المزعومة في إخصاب نفسها بنفسها، رمزاً لانبعاث الـ «كا» وقيامها. وقد أدى بيع كتب الموتى وطلاسم المعجزات إلى ثراء المعابد التي كانت تعدها وتصنفها، كما شجع الملوك الفراعنة على المتاجرة بالحياة الباقية هذه ما دام سلطانهم يقوم، في أساسه، على مبادئ أخلاقية تنظم العلاقات الاجتماعية في كافة أرجاء مملكتهم. وقد فقد الموت، بفضل هذه الديانة، طابعه المخيف وشرع الناس يعتقدون أن حياة الـ «كا» بعد الموت شبيهة بتلك الحياة التي يحيونها على الأرض، فاجتهد الرجال والنساء معاً، قدر استطاعتهم، في أن تكون حياتهم الأرضية حياة متعة وبهجة لتكون حياتهم المقبلة على غرارها. وأن بإمكان كل من زود ضريحه بالتجهيزات اللازمة وكل من كان على وفاق مع الكهنة، أن يستسلم، دونما خوف، إلى التمتع بكل مباح وأن يجعل من أيامه عيداً مقيماً.

«لقد سمعت ألفاظ أمحوتب وهارديف،
وهي ألفاظ ذائعة الصيت نَطَقَا بها.
انظر إلى مكانيهما
إن جدرانهما قد جردت
ومواضعهما قد اندثرت
كأن لم تفن بالأمس
أن أحداً لا يأتي من هناك
ليحدثنا عما حل بهما..
حتى يرضي قلوبنا،
إلى أن يحين وقت ارتحالنا
إلى المكان الذي ذهبا إليه.
شجع قلبك على نسيانه
واجعل من أسباب سرورك أن تسيرَ وراء
رغباتك
ما دمت حياً ترزق
وضع المر على رأسك،
والبس على جسمك نسج التيل اللطيف،
وانعم بوسائل الترف العجيبة
أشياء الآلهة. الحقة

.....

وزد في مباهجك أكثر من ذي قبل،
ولا تترك قلبك يذبل،
وسر وراء رغباتك وما فيه الخير لك
وهي أمورك على ظهر الأرض
حسب ما يأمر به قلبك أنت،
حتى يأتيك يوم النحيب.
حين لا يسمع ذوو القلوب الساكنة (الموتى) نحيبهم،
وحين لا يصغي من في القبور إلى حزنهم،
واحتفل بيوم السرور
ولا تمل منه
انظر، ليس ثمة من يأخذ أمتعته معه.
أجل، ولا يعود ممن ذهبوا إلى هناك.

«قصة الحضارة - المترجم»

وهذا ما سعى إليه الرجال والنساء إذا ما توفرت لهم الظروف المناسبة، فكان أحباب المستقبل هؤلاء يتوجون رؤوسهم بالورود ويتطيبون بأثمن العطور ويلبسون الثياب الفاخرة الغنية الألوان ويمرحون ويسرحون ويحتسون الخمر ويتبادلون الهدايا الثمينة. وكانوا كلما ازدادوا رفاهاً ازدادوا تخنثاً فزينوا كعابهم ومعاصمهم بالحلي والجواهر وازدانوا، أيام الأعياد، بشعور مستعارة بهية المنظر في حين كانت للنساء شعور قصيرة.

وقد ألحق الثراء الأذى بصحة الأغنياء، غير أن أدوية لعلاج السمنة قد توفرت بين أيديهم. ولم يكتف الكهنة، قط، بتلاوة الأدعية والتعازيم السحرية، كما أنهم لم يكتفوا بطرد الأمراض بالأوامر والايعازات فحسب: «اخرج أيها البرد يا ابن البرد، يا من تهشم العظم، وتتلف الجمجمة، وتمرض مخارج الرأس السبعة، اخرج على الأرض. وفر. وفر. وفر» بل اكتسبوا، دونما ريب، بفضل فن التحنيط، معرفة وافية بالتشريح وعلم وظائف الأعضاء واستفادوا منهما في علاجهم، فغدوا جراحين مهرة وشرعوا بإجراء عمليات جراحية في الجمجمة، وعرفوا الجسم البشري واكتشفوا أعراض العديد من الأمراض ووضعوا أسس تشخيصها ودرسوا العلاجات الناجعة، وأوجدوا الأدوية وصنعوها بعد اختبار آثارها وفعاليتها، وعرفوا معظم الأدواء

وعلاقاتها المرضية وسموها بأسمائها للتمييز فيما بينهما، حتى الأمراض التي لم يستطيعوا شفاء مرضاهم منها. وعرفوا، مسبقاً، أنها قاتلة لا محالة. وكانوا ينصحون المرضى باتخاذ التدابير الوقائية فشاع استعمالها، كالحقن الشرجية مثلاً. وقد نقل إلينا هيرودوت: أن المصريين يتناولون في كل شهر مليئات لمدة ثلاثة أيام متواصلة ويحرصون على وقاية صحتهم بالمقيئات وغسل المعدة، «إذ يعتقدون أن جميع الأمراض التي يتعرض لها البشر تنشأ مما يتناولوه من طعام».

فكان رجال مصر ونساؤها يأكلون كثيراً وبمتعة، لأن كلاً منهم كان يرغب في تشريب قرينته مبادئ حب الحياة بعد الموت.

مأدبة مأتمية (أواسط عهد الأسرة 18) طيبة

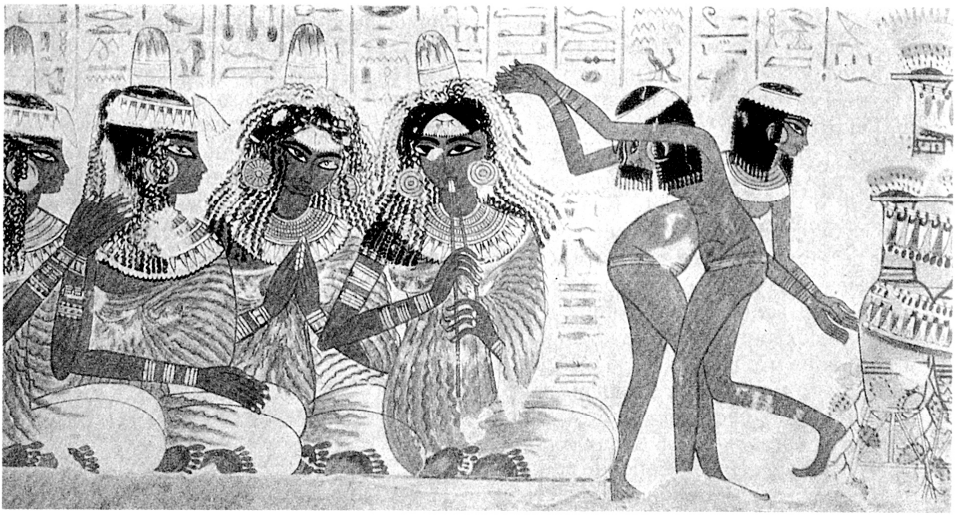

الراقصات والعازفات (1) (طيبة -الأسرة:18)

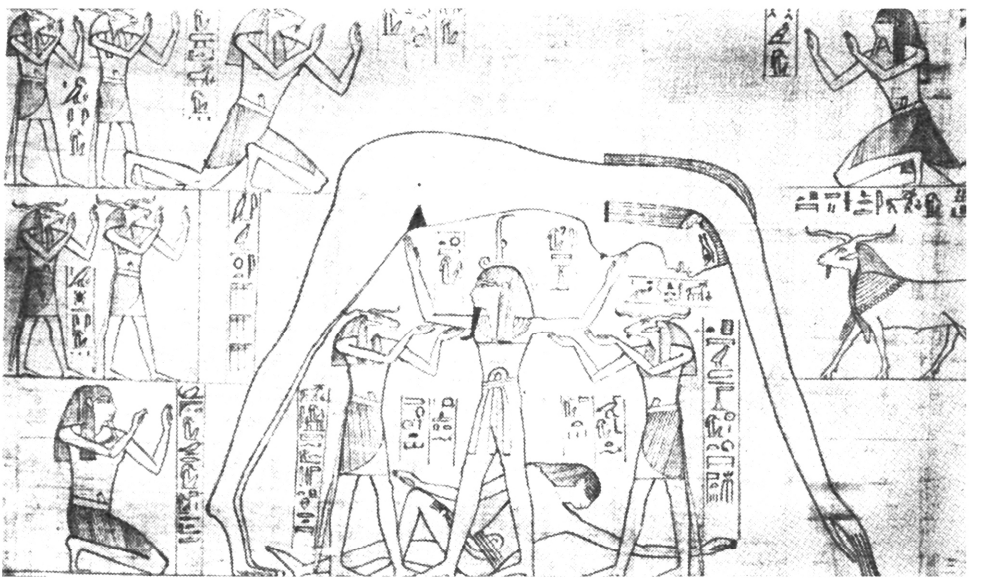

الإله شو يفصل نوت عن أخيها جيب (الأسرة: 21)

عازفة القيثارة

(الأسرة:25)

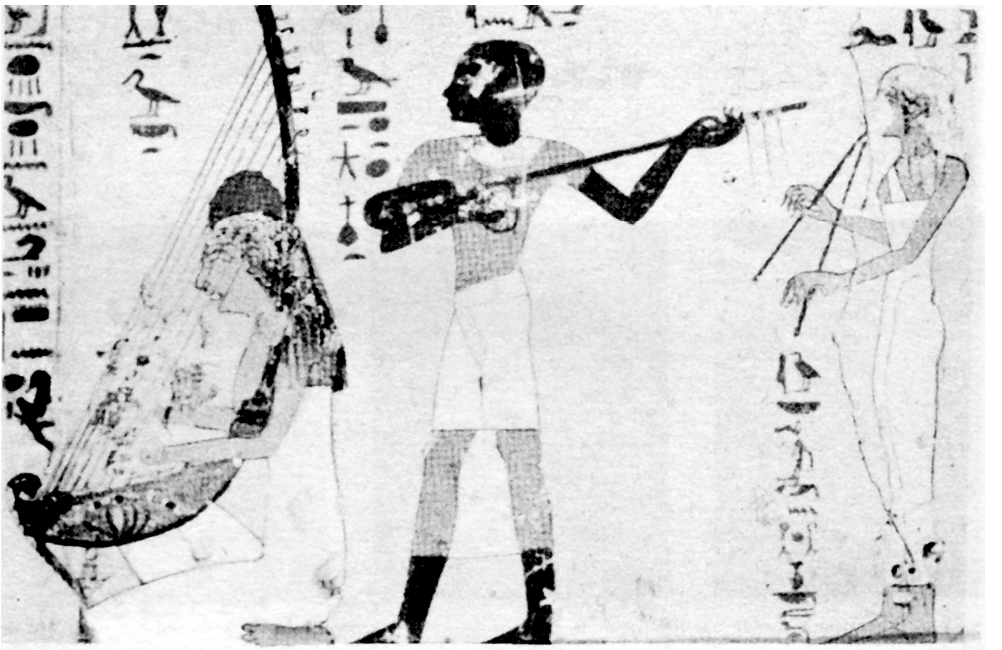

من عهد تحتمس الثالث

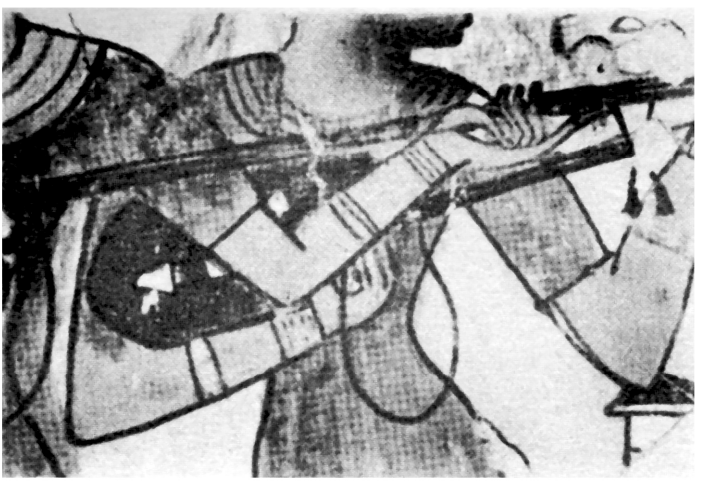

من عهد تحتمس الرابع

تمثال سحري

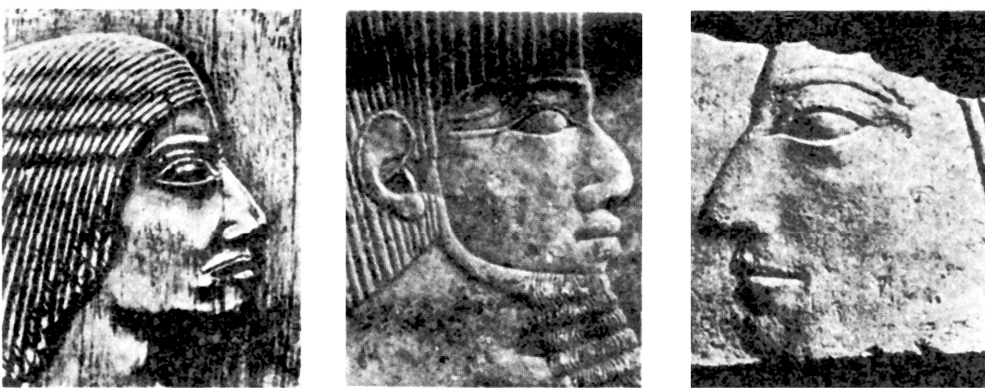

تمثال يمثل قرينة «كا» الملك حور (أواخر الأسرة: 12 متحف القاهرة)